الغرض من الانذار الطبي

من الخطب النفيسة التي تليت في اليوم الاول من ايام المؤتمر الطبي الذي عقد في مدينة لندن خطبة للاستاذ شوفار الفرنسوي من اساتذة مدرسة باريس . ومما قالهُ في خطبتهِ ان المريض كان دائماً يسأل الطبيب سؤالين مهمين الاول هل اشفى من مرضي والثاني ما هو الدواء الذي يشفيني . ومنذ مئة سنة او نحوها جعل المرضى يهتمون بسؤال ثالث وهو ما هو الانذار في هذا المرض اي ما هي عواقبهُ التي يأول اليها . ويحق ان يكون لعصر ابقراط دائماً محل واسع في تاريخ الطب . ففي ذلك العصر لم يكن لدى الاطباء وسائط آلية للبحث والاستقصاء فكانوا يعتمدون على ما يرونهُ بعيونهم ويلمسونهُ بايديهم اي على المشاهدة والجس حتى قال ابقراط ان امهر الاطباء هو الذي يعرف ما يأول اليهِ حال المريض . وقولهُ هذا يصدق الآن كما كان يصدق في عصرهِ بل هو اصدق اليوم لزيادة المعارف الطبية

ثم ذكر كيف تقدَّم الاستقصاء والانذار وعدَّد اسماء الاطباء الذين كان لهم شأن كبير في تقدمها الى ان وصل الى كارد برنار الذي صار الطب في يدهِ نظراً في وظائف الاعضاء بعد ان ابعث او انقلبت عن حالتها الطبيعية . قال وقد علَّمنا كلود برنارد اننا لا نستطيع ان نعرف الحالة المرضية وتغيير مجراها ونتائجها الاَّ اذا كنا عارفين بما سببتهُ من انحراف الوظائف . وما الآلات والاساليب التي وضعت في يد الطبيب لفحص المريض سوى طرق لفحص الافعال التي تجري في جسمهِ ومعرفة كونها صحيَّة او مرضية . وقد نتج عن ذلك ان صار الطبيب فسيولوجيًّا اي صار يبحث في وظائف الاعضاء بل صار بيولوجيًّا اي صار يبحث في وظائف اعضاء الجسم من حيث كونهُ جسماً حيًّا

هذا من حيث الانذار القريب اي ما يأول اليهِ المرض وحالة المريض في المستقبل القريب . اما الانذار البعيد فمن الامور التي يهتم بها الاطباء الآن جزيل الاهتمام . ففي القرن الماضي كان الاطباء يعتقدون ان المرض عرَض مفارق فاذا شفي انتهى امرهُ . ولكن هذا خطأ وكل يوم نرى ادلة على ان للمرض فعلاً بعيداً كما لهُ فعل قريب مثال ذلك الحمَّى الروماتزمية (المفصلية) وعلاقتها بمرض القلب واول من انتبه لذلك جمس جنصن سنة ١٨١٨ ولكن لم تعرف اهميتهُ تماماً الاَّ منذ عهد قريب . اذا اصيب ولد بالحمى الروماتزمية فالانذار القريب حسن لان الاولاد يشفون من هذه الحمَّى دائماً تقريباً ولكن ليس كذلك

الانذار البعيد واول شيء يهتم بهِ الطبيب الآن هو هل اثَّرت هذه الحمى في القلب لانها تؤثر فيهِ غالباً. والشفاء من الحمى نفسها مؤكد في الغالب ولكن الطبيب ينظر الى بعيد ويخشى من تأثيرها في القلب ويحاول منع هذا التأثير ويصير اهتمامهُ بالمستقبل اشد من اهتمامهِ بالحاضر

واذا انتقلنا من الامراض الحادَّة الى الامراض المزمنة صار الاهتمام بالانذار البعيد اعظم شأناً لكثرة العواقب الوخيمة الناتجة عنها حتى لقد صار الاطباء ينظرون الى بعض الآفات العادية كنتائج بعيدة من ادواء سابقة . وفي بعض الامراض مثل السل والسفلس قد يشفى المريض ولكن ما من طبيب يستطيع ان يؤكد ان المرض الذي شفاهُ منهُ لا تكون لهُ عواقب سيئة بعد سنة او سنين ولذلك فحياة الانسان من حيث الصحة والمرض غير مؤلفة من ايام صحة وايام مرض منفصلة بعضها عن بعض بل هي سلسلة واحدة متصلة ولو اختلفت حلقاتها وعلى الطبيب ان يتبيَّن هذا الاتصال ويعرف مواقع الخلل وعلهُ ويتتبعها ومن ثم يعرف ما سماهُ القدماء بالمزاج ويبنيهِ على اسس علمية

واستطرد الاستاذ شوفار الى تأثير امراض الانسان في نسلهِ وهو الانذار الابعد واثنى على السر فرنسيس غلتن الذي وضع علم اصلاح النسل واشار الى الذين يحملون ميكروبات الامراض ولا يُضَرون بها بل يضرون الذين يتصلون بهم وقال ان لا بد من ان تتخذ الوسائل الفعالة لوقاية الشعب منهم . فالانذار الطبي الذي يحاول الطبيب معرفتهُ من فحص المريض يتصل الى مستقبل المريض وعائلتهِ وشعبهِ والى العالم اجمع

ثم التفت الى امر آخر وهو تأثير علم الطب في الانذار اي تغيير مجرى الامراض وجعلها تنتهي بالشفاء بعد ان كانت نهايتها الموت دائماً او غالباً فابان ان علم الطب غيَّر الانذار في كل الامراض تقلل وفياتها وضعف تتائجها . وممَّا فعلهُ حديثاً من هذا القبيل اكتشافهُ دواء يشفي من مرض النوم الذي كان يحسب داء عقاماً لا شفاء لهُ وهذا الدواء هو الاتوكسيل Otoxyl الذي اكتشفهُ الدكتور لويس مارتن من اطباء باريس ودواء يشفي من الدوسنطاريا الاستوائية اكتشفهُ الدكتور ليونارد رجرس من اطباء كلكتا وهو الاميتين Emetine

ثم قال لكن الانذار الطبي لا يسير دائماً حسب ما يعلم عنهُ اي ان العمل لا يوافق النظر دائماً لان فيهِ امراً مجهولاً وهو تأثُّر اعصاب المريض بمسببات المرض فان هذا التأثر يختلف باختلاف الاشخاص ولا يمكن ان توضع لهُ قاعدة مضطرة

وجملة القول ان الانذار الطبي تقدم كثيراً بتقدم العلوم الطبية ويتقدم سائر العلوم والفنون المتعلقة بها وان مداهُ اتسع جداً ولكن الطبيب لا يستطيع ان يجزم بهِ جزماً تاماً